التكفير

أزمة نفسية

ماذا يقول علم النفس عن التكفير؟

د. ثابت الأحمدي

التكفير

أزمة نفسية

ماذا يقول علم النفس عن التكفير؟

التكفـــير

أزمة نفسية

ماذا يقول علم النفس عن التكفير؟

د. ثابت الأحمدي

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف ولا يجوز نهائيًا
نشر أو اقتباس أو اختزال أو نقل أي جزء من المُؤلف
دون الحصول على إذن كتابي من المؤلف

اسم الكتاب: التكفير أزمة نفسية .. ماذا يقول علم النفس عن التكفير؟
اسم المؤلف: دكتور/ ثابت الأحمدي
رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب (فرع المكتبة الوطنية - عدن):
2023/1296

الطبعـــة: الأولى 2023م

استهلال

أما قبل..

إسهامًا منا في معالجةِ ظاهرةٍ سلبية، قديمة/ جديدة، هي ظاهرة التكفير، كانت هذه الصفحاتُ، وهي إلى الطريقة الإنشائية، أقربُ منها إلى الطريقة البحثية، تخفيفًا من رتابة البحث، بالمعنى الأكاديمي الصّارم.

ونتناول هذه الظاهرة قديما وحديثا، تناولا موجزًا وخاطفا، في الأديان بشكل عام، وفي الدين الإسلامي بشكل خاص، مسهبين القول في القسم الثالث، المتعلق بكون التكفير أزمة نفسية، أكثر منه أزمة معرفية أو علميّة، بقصد استلفات أنظار من يهمهم الشأن بدرجة رئيسية إلى نقطة مهمة، ربما لم يتنبهوا لها من قبل. وحد علمنا أنه لم يتناول هذه الظاهرة باحثٌ من قبل من هذه الوجهة؛ وجهة النظر النفسية الخالصة.

لقد كتب الباحثون ونقبوا كثيرًا عن التكفير من منظور تاريخي، والتكفير من منظور عقدي فكري؛ لكنهم لم يتوقفوا عند التكفير من

منظور سيكولوجي نفسي، ما جعلنا نتوقفُ عند هذه الجزئية، لتقديم ومضاتٍ وإشاراتٍ عابرةٍ لا أكثر، تفتح الأفق للمختصين مع قادم الأيام.

والواقعُ أنّ هذا العملَ قد يُغضبُ البعض، كما قد يفرحُ الآخرين؛ لأنّ هناك من يرى نفسه مستهدفا في هذه الأسطر، كما أنَّ هناك من هو خصمٌ للفقهاء ورجال الدين على الدوام، سواء أصابوا أم أخطأوا. والحقيقة أننا لم نُرد لا إغضاب فلانٍ، ولا تسلية علان، بقدر ما نريد التوقفَ عند قضيةٍ مهمةٍ شائكة، ميزتها جِدّتُها، وجدّيتُها فقط، وكذلك مرونتها في قبولها للتصويب والإضافة القائمة على أساس علمي. صحيح أنها قد تكون اشتملت على شيءٍ من القسوة؛ لكن التكفير أقسى من كل القساوات، وليس بعد قسوته قسوة. ثم إننا مضطرون - أحيانا - لأن ننضحَ الغارقَ في نومه بالماءِ البارِدِ يوم الشتاء القارس، ليصحوَ من طول سباته، وقد غطّ فيه كثيرًا.. الأمر لا يعدو هذا الغرض.

في الحقيقة تابعتُ نقاشًا مطولا وجادًا بين مجموعةٍ كبيرةٍ من رجالِ دين سلفيين في إحدى المجموعات على الواتس، عن المرحوم البروفيسور عبدالعزيز المقالح، ليلة وفاته، يرحمه الله، كما وصلتني نقاشاتٌ مثلها من مجموعاتٍ أخرى أيضا، واندهشتُ حدّ الذهول حين وجدتُ بعضَهم

مُصِرًا على تكفيره، بعض هؤلاء المُكفّرين من الشخصيّات المعتبرة والمشهورة دينيا وسياسيا، وبعضهم من الأتباع. والحقيقة أني اكتشفت شخصياتٍ مخيفة ومتوحشة للغاية، لم تردعها حتى رهبة الموت، ولا أدب الذوق العام، لتردَّ الأمرَ إلى الله عز وجل، فهو الخبيرُ بعباده؛ بل أوغلت في العدائية والإيذاء لروح الفقيد ولمحبيه، ولو بوسعها تقرير مصيره لألقت بجثمانه وروحه بين ألسنة جهنم..!

وجدتُ جَهَلة باللغة، وجَهَلة بالثقافة، وجَهَلة بتاريخنا السياسي المعاصر، رؤوسهم حافية، يُكفّرون بالجملة والتجزئة، كما لو أنهم خُلقوا لأداء مهمة رقيب وعتيد، ومنكر ونكير؛ بل و «مالك»، أو هكذا يرون أنفسهم. كفّروه وحكموا بكفره، دون أن يقرأوا له كتابًا واحدًا من أصلِ خمسةٍ وثلاثين كتابا منشورًا، إلى جانب مئات الدراسات والأبحاث الأخرى التي أنجزها الراحلُ خلال مسيرته العلمية والعملية. ويا لهول ما فعلوا، رغم أنه انبرى لهؤلاء التكفيريين آخرون من أقرانهم كانوا على قدرٍ كبيرٍ من التفهم وسعةِ الاطلاع والعقلانية في الطرح.

وعلى كل حالٍ.. نكنُّ لعلمائنا وفقهائنا كلّ الاحترام والتقدير، ما داموا محترمين إنسانيّة الإنسان، غير مُبيحين دمه وماله وعرضه لأتفه

الأسباب العابرة، أو لأصغر الشّبَه العارضة، وبعضهم كذلك حقا، فإن أصروا على ذلك - وبعضهم مُصِرٌّ فعلا - فبيننا وبينهم الحِجَاج والحوار والقول بالتي هي أحسن، حتى نصلَ معهم إلى كلمةٍ جامعة.

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾

د. ثابت الأحمدي

الرياض

7 **ديسمبر** 2022م

التكفير.. استهلال تاريخي

ظاهرةُ التكفير من الظواهر التاريخية القديمة/ الجديدة، وليست وليدة اليوم، وهي كذلك شائعة في كل الأديان السّماوية والأرضيّة على حدٍ سواء، ولا تقتصر على دينٍ دون سواه.

كان اليهود - ولا يزالون - يعتقدون أنهم «أصفياء الله» في خلقه، وأنهم «شعب الله المختار» الذي يجبُ أن يتسيّدَ ويحكم ويسيطر على كل مَن عداهم من الأمم الذين هم في منظورهم مجرد «جوييم/ عامة وغوغاء»؛ لأنهم أقل شأنًا منهم؛ لهذا حرّموا الجنة عليهم، واختزلوها لأنفسهم فقط: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: 111]. ونصوصُ التوراة والتلمود مليئة بالشواهد التي تُعلي من شأن اليهود كجنس، وتنتقصُ من شأن الآخرين، كل الآخرين أيضا، بلا استثناء.

هذا تكفيرٌ، أو رفضٌ لكل من عداهم من الأمم في الأديان المختلفة،

إذا ما انطلقنا من التفسير المعجمي لكلمة «الكفر» و «التكفير»، إضافة إلى تكفير بعضهم البعض بعد ذلك، وإلى اليوم لا يزالُ غُلاةُ الصُّهيونية اليهوديّة المعاصرة يكفرون إخوانَهم في العقيدة من اليهود أنفسهم، الداعين للسلام مع العرب، وقد كانت نهاية رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق إسحاق رابين على يد متطرف من اليمين اليهودي، اتهم رابين بالتفريط في اليهودية..!

ذات الأمر في المسيحية التي تعتقد معتقد اليهودية في نظرتها لسواها. كما كانت الجماعات المسيحية تكفّرُ بعضها بعضًا حتى وقت قريب؛ بل ويتقاتلون بعنفٍ مفرط فيما بينهم، خاصة الكاثوليك والبروتستانت؛ لهذا شاعت في المسيحية مصطلحاتٌ دينيّة لا يزال بعضُها سائرًا إلى اليوم، وبعضها تسرب إلى الفكر الإسلامي، مثل: صاحب البدعة، التجديف، الهرطقة، الكفر، الردة..إلخ.

فمصطلح «بدعة» و «مبتدع» شاع في المسيحية أولا، قبل أن تلوكه بعضُ ألسنة رجال الدين الإسلامي، وكذا مصطلح الكفر والردة وغيرهما؛ لأن الكهانة واحدة أينما كانت وفي أيّ دين، يهودية أم مسيحية أم إسلامية؛ وفي اليهودية والمسيحية تم تكفير الأفراد، كما تم تكفير

الجماعات، ولقد صدرت فتاوى تكفيريّة من قبل البابوات لكل مُوحّد مسيحي، يؤمن بأن المسيحَ أحادي التكوين، «ناسوتي».

لقد أحكم الحاخاماتُ اليهودُ والبابواتُ المسيحيون قبضتهم على رقاب الناسِ ردحًا من الزمن، وأوجبوا لأنفسهم على الخلقِ الطاعة العمياء والمطلقة لهم، ونشروا في العامّة من الناس أن طاعتَهم من طاعة الله، وعصيانهم من عصيان لله. وحاليا توجد داخلَ الحكومة الإسرائيلية أحزابٌ يمينية راديكالية متطرفة، لا تكفر مَن عداهم من الأديان الأخرى كالمسلمين أو المسيحيين فحسب؛ بل تُكفّر حتى بعض الأحزاب اليهودية ذاتها التي تتهمها بالتراخي في تطبيق الشريعة اليهودية..!

وفي اليهودية والمسيحية لم يتوقف الأمر على مجرد التكفير فقط للمخالف، أو الحُكم عليه بالبدعة والهرطقة والتجديف والردة؛ بل تبعه استحلال دمه وماله، وهو ذاتُ الشأن أيضًا لدى بعض الجماعاتِ الإسلاميّة أو الأفراد «المكفّرة» من المتطرفين الغُلاة، وفي المسيحية يعتقد باباواتُها وقساوستُها أنّ الأطفالَ المسيحيين الذين يُتوَفون عقب ولادتهم قبل تعميدهم في الكنيسة من أهل النار، وينزل بهم أشد العذاب..!

لقد فتك المسيحيون الغربيون أثناء حملاتِ الحروب الصليبيّة

بإخوانهم في الدين المسيحيين «النساطرة الشرقيين» قبل أن يفتكوا بالمسلمين؛ لأنّ النساطرةَ المسيحيين الشرقيين كانوا يخالفون إخوانهم المسيحيين الغربيين في الإيمان بطبيعةِ المسيح، فيسوع في نظر النساطرة الشرقيين خلقٌ من خلق الله، فيما هو في نظر بقية الكاثوليك الغربيين – تحديدًا – مركّب من طبيعتين: لاهوتية وناسوتية في آنٍ واحد. ومما يُؤثرُ عن «نسطورا» بطريرك القسطنطينية قوله: «لن أدعوَ طفلا عمره شهران أو ثلاثة: «الله».

وإلى جانبِ المسيحيين النساطرة أيضًا يهود الناصرة وبيت لحم في فلسطين الذين قتلهم الصليبيون داخل معابدهم وبيوتهم، إلى جانب المسلمين؛ لأنّ الجميعَ في نظر المسيحيين الغربيين كفارٌ مرتدون، دماؤهم وأموالهم وأعراضهم حلال. والحقيقة أن حشود الصّليبيين في أوروبا لم تتحشد إلى بلاد الشرق إلا بناءً على فتوى البابا أوربان الثاني: 1042م – 29 يوليو 1099م في بداية الأمر، وذلك لتحرير الكنائس المسيحية في الشرق، وفي الأرض المقدسة من الكفرة والوثنيين، وقد وعد المُحاربين بِأن تكون رحلتهم إلى المشرق بِمثابة غُفرانٍ كاملٍ لذنوبهم، وقد أدوا فريضة «الحج المسلح».

وهكذا جنى التكفيرُ المسيحيُّ أكبرَ كارثةٍ إنسانيةٍ في تاريخ العصر الوسيط، لا على المسلمين فحسب؛ بل حتى على اليهود وبعض الفرق المسيحية «الشرقية»؛ لذا - وفي واحدة من ردود الفعل المتشنجة - أعلن الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش «الابن» عقب أحداث سبتمبر 2001م، أنه سيعلنها حربا صليبية جديدة على الشرق، وعمليا فهذا ما كان تجاه العراق، على الأقل في جزءٍ من هذه العملية الغاشمة التي دمرت شعبًا بكل مقوماته التاريخية والحضارية العريقة، ولا تزال.

ولم تنته جناياتُ التكفير المسيحيّة الكاثوليكية بانتهاء الحروب الصليبيّة في الشرق فقط؛ بل لقد ارتدت على نفسها، خلالَ ما عُرف بفترةِ العصور المظلمة في أوروبا: «الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر»، وبلغت أوجها في القرن السادس عشر، فارتكبت جناياتٍ كبرى ضد كل مخالفٍ لها آنذاك، وشهدت بلاد أوروبا أكبر موجة نزوح جماعي منها للنخبة المثقفة نحو بلاد الشرق تحديدًا، ونحو بعض بلاد شمال أوروبا التي لم يتغول فيها التكفيرُ الكنسي كثيرًا، كما كان في غربها.

محاكمة النوايا

لقد بلغ برجال الدين المسيحيين أن يحاكموا نوايا «الكفار/ المرتدين/ المجدفين» وكانت مجرد التهمة في واحدة من هذه تفصل الرأس عن الجسد؛ أو قل تزهق روحه بدون إراقة للدم، تحايلا على وصية المسيح المشهورة في منع إراقة الدماء، فلجأوا للحرق، وقد تم إحراق عشراتِ الآلاف من النخبة الثقافية والفكرية في أوروبا. حَكم عليهم رجالُ الدين بالكفر؛ لأن لهم آراءً تخالفُ رأيهم، وحد تعبيرهم: تخالف رأي الله. ومن أشهر مَن تم إعدامهم «بان هوس»، عميد جامعة براغ، والعالم الفلكي الشهير «برونو» بعد أن قطعوا لسانه أولا. أيضًا «جاليلو جاليله»، العالم الطبيعي الشهير الذي تمت ملاحقته ثم سجنه ومحاكمته، لقوله بكُروية الأرض، لولا أنه اضطر إلى مهادنة الكنيسة، لينجوَ بحياته من «نار التكفير» الكهنوتية، وعقب قسم المهادنة ذاك، قال قولته المشهورة: «ومع ذلك فهي تدور».!

إضافة إلى ذلك تم إجبار آلاف الأسر المسلمة في الأندلس بعد انتهاء حكم الدولة الإسلامية فيها على ترك دينهم واعتناق الكاثوليكية

المسيحية، وبعد أن أجبرتهم على تغيير معتقداتهم أيضًا حاكموا نواياهم وطردوهم نهائيا؛ حيث شك البابوات في عقيدتهم الجديدة؛ وقد عُرفَ هؤلاء فيما بعد بالموريسكيين، وسكنَ بلادَ المغرب العربي منهم ما يزيدُ عن خمسين ألف «موريسكي» مُهجّرًا من بلاده الأصل في الأندلس «اسبانيا والبرتغال»؛ أمّا مَا حصلَ للسكان الأصليين في أمريكا اللاتينية من استعباد وتدمير وإبادة على يد «كولومبوس» ورفاقه، وفرض العقيدة الكاثوليكية الجديدة عليهم ففوق أن يوصف، إلى حد اضطرار الاسبان إلى جلب الملايين من الأفارقة السود إلى أمريكا، تعويضًا عمّن هلكوا. وثمة تفاصيل مرعبة لهذه الجنايات الإنسانية الكبرى ذكرها عالم الاجتماع الفرنسي المعروف جوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب».

وفي صُورةٍ مُرعبةٍ من العنف والإرهاب المسيحي، يخاطب المصلحُ الديني لوثر طبقة الفلاحيين، فيما عرف بحرب الفلاحين في ألمانيا: إن أيامنا عظيمة، يستطيع فيها الأمير أن يكسب رضاء السماء بإراقة الدماء، أكثر مما يستطيع بالصلاة..!

ولم يقتصر التكفير على هاتين الديانتين فقط؛ بل إن غُلاة الهندوسية بالهند يكفرون السّيخ، وغُلاة السّيخ يكفرون الهندوسية، وما من طائفة أو

جماعة دينيّة على وجه التحديد إلا وتكفرُ الأخرى أو تفسّقها وتبدّعها، في سبيل القضاء عليها. وفي الدين الإسلامي الحنيف نلمح هذه الظاهرة أيضًا بوضوح لدى بعض فرقها، وأفرادها، كما سنشير إلى ذلك لاحقا.

التكفير في الإسلام

مما لا شك فيه أنّ الدينَ الإسلاميّ الحنيفَ دينُ الرحمة للإنسانية قاطبة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وفي الحديث النبوي الشريف الذي أخرجه مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنّ رحمتي تغلبُ غضبي».

ومن يتتبع فلسفة الدين الإسلامي وتعاليمه القُدسيّة السماويّة يجدها فيّاضة بالمحبة والسلام، والتعايش والوئام، ليس بين بني البشر كأناسي فحسب؛ بل حتى مع الحيوان، فلقد نصت التعاليمُ الدينية الإسلامية على الرفق بالحيوان والتعامل معه بلطف ولِين؛ وليس مع الحيوان أيضًا فحسب؛ بل وحتى الطبيعة نفسها، فنهى الهديُ النبوي عن تدمير الأشجار، أو تلويث البيئة، أو الإساءة للطرقات والأماكن العامة.. إلخ. فديننا الإسلامي رحيمٌ بالإنسان وبالحيوان وبالطبيعة معا.

ولكن..

مع كل هذه التعاليم الدينية النبيلة، وفلسفتها السّماوية الأخلاقية ابتُلِيَ هذا الدينُ بأناسٍ هم إلى الأحبار والرهبان أقرب منهم إلى الفقهاء العارفين المستنيرين.. برجالٍ منه نسبوا أنفسهم إليه زورًا وبهتانا، ليشتروا بآيات الله ثمنا قليلا.. برجال دين ظل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعا..!

ومشكلةُ الإسلام مع بعض فقهائه هي مشكلة اليهودية مع أحبارها، والمسيحية مع رهبانها الذين جنوا عليهما، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، وساء ما يشترون. وقد تنبأ بهم رسول الله – ﷺ – من وقت قديم، فقال كما في حديث ابن عباس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكونُ في آخرِ الزمانِ علماء يُرغِّبون الناس في الآخرة ولا يرغَبون، ويُزهِّدون الناس في الدنيا ولا يزهَدون، وينهَون عن غشيان الأمراء ولا ينتهون»**.

لقد ابتدأت مسيرةُ التكفير بالخوارج، مرورًا بما عُرف بحنابلة بغداد فيما بعد، فحنابلة الشام، وحتى الجماعات التكفيرية المعاصرة التي تكاثرت بصورةٍ ملحوظةٍ في القرنِ العشرين، ولا تزال مستمرة إلى اليوم. وقد أوغلت في التكفير والتفسيق والتبديع لكل مخالف، جهلا بحقيقة

الدين ومقاصده العامة، وكل خَلَفٍ يعتمد على سَلفه، مُعتبرًا إياه قدوته في التكفير، وحجتهم: إما متشابهات من الأحكام، أو تأويلات فاسدة، أو قياسات باطلة.

والحقيقة أن التكفيرَ لا يقتصرُ على الجماعاتِ السُّنية فقط؛ بل والشيعيّة أيضًا الذين يكفرون كلّ مَن لم يؤمن بمذهبهم، «الهادوية الزيدية في اليمن أنموذجا»؛ إذ ترى أنّ كلّ من لم يؤمن بما يسمى «حق عليٍّ وبنيه في الحُكم» خارجٌ من الملة، إلى حد تحريم بعضهم للصلاة خلف المسلم السُّني، وإلى حد اعتبار أرض «المجبرة والمشبهة/ أهل السنة» أرضًا نجسة، حتى لو كانت بلاد الحرمين الشريفين، كما يقررُ السّفاح الطاغية عبدالله بن حمزة وغيره من كرادلة النظرية الهادوية الذين كفروا اليمنيين سابقا ولاحقا، ولا يزالون يكفرونهم حتى اللحظة.

الجهل المقدس

يُقال: كلّما ازداد الإنسانُ غباوةً ازداد يقينًا بأنه أفضل من غيره في كل شيء. وهذه واحدة من حقائق التاريخ فعلا، والحقيقة أنّ كلّ نزعاتِ التطرفِ تعودُ - في جذرها العميق - إلى الجهلِ المتفشي، وعدم المعرفةِ، إلى جانب أسبابٍ أخرى كثيرة، منها الأسباب النفسية، كما سنرى بالتفصيل لاحقا.

ومما يُنسب للفيلسوف برتراند راسل قوله: «مشكلة العالم أنّ الأغبياء والمتشددين واثقون بأنفسهم أشد الثقة دائما؛ أما الحُكماء فتملؤهم الشكوك». وقريبا منه قول الإمام الشافعي:

كلما أدبني الدهر أراني نقص عقلي
وإذا ما ازددتُ علما زادني علما بجهلي

إنّ مما يؤسفُ له أن نجدَ رجالَ دين نزّاعين إلى التكفير والتفسيق والتبديع، يُفتشون في مساماتِ الحروف وأنسجة الكلمات، وأغوار النوايا لهذا الأديب أو ذلك الشاعر، أو حتى ذلك الفقيه من نظرائهم، لتكفيره واستحلال روحه وماله، فإذا ما وجدوا شبهة طاروا بها فرحًا في الفضاء

العام؛ معتقدين بذلك أنهم يخدمون الدين ويذودون عنه، وبتعبيرهم: «يحمون بيضة الدين»، فيما هم في الواقع يسيئون إليه، ويهشمون هذه البيضة.!

رجالُ دين - في أغلبهم - حفظوا ما تيسرَ لهم من القرآن الكريم والأحاديث النبوية، ثم لبسوا البياض من الثياب، وتضمّخوا بالعُطور، وأطلقوا لحاهم، معتقدين في قرارةِ أنفسهم أنهم قد صاروا علماء وعباقرة، زاد من ثقتهم بأنفسهم تحلُّق تلاميذهم بجانبهم، وتصديق عامة الناس لهم، فعزّزوا فيهم ذلك الشعور والوهم.

والواقعُ أننا لو فتشنا في بضاعةِ هؤلاء المُكفّرين والمُفسّقين من رجالِ الدين لوجدناها ضحلة، مُزجاة، بئيسة، فلَا حظّ لهم من علم، ولا نصيب لهم من ثقافة، إلا حظ ونصيب الغربال مما يمسُكه من الطحين، عدا عناصر معدودة منهم فقط، نستطيع القول عنها أنها أقلية «مجهرية»، هذه العناصر المعدودة التي هي على قدرٍ من العلم والاطلاع فعلا هي أقل نظرائهم ضجيجًا وصخبًا، وأكثرهم رزانة وتعقلا وحكمة. وصدق القائل: «الآنية الفارغة أكثر ضجيجا من الآنية الممتلئة».

الأغلبية منهم لم يتضلّعوا في علومِ الشريعة، ولم يتوسعوا في علوم

اللغة وفنونها؛ بل إنّ بعضَهم لا يجيدُها أساسًا، على أهميتها لعلوم الشريعة، باعتبارها من علوم الآلة، كما يقولُ ابنُ خلدون؛ أما لو تحدثنا عن بقيةِ الفنون والعلوم الأخرى التي يجب أن يُلِمُّوا وإن بالحد الأدنى منها فلا يكادون يقتربون منها أساسًا، وربما فروا منها، كمبادئ التربية والقانون والفلسفة والتاريخ والآداب والفنون وعلم النفس والاجتماع واللسانيات، ناهيك عن العلوم التطبيقية الحديثة.. إلخ، ومع هذا تجدهم يحشرون أنفسهم في كل شاردةٍ وواردةٍ، من المسائل التي يُسألون فيها، من مسائل الدنيا والآخرة، وحتى فيما لم يُسألوا، فإنهم يتبرعون من تلقاءِ أنفسهم للحديث فيما لا يحسنون، وفيما لا يخصهم أساسًا.

إنّ فيهم من الجهل ما ليس في غيرهم من الجماعاتِ الأخرى؛ كونهم حُفّاظَ آياتٍ وأحاديثَ فقط، في غالبهم، يسعون إلى تنزيلها على حياة الناس، غير مُراعين مقتضياتِ الزمان والمكان، جاهلين أو متجاهلين المقاصد العامّة والكلية من الدين التي أرادها الشارع الحكيم. وبحسب ابن خلدون: «..العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها، والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات وتجريدها في الذهن أمورًا كلية عامة، ليحكم

عليها بأمر العموم، لا بخصوص مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس، ويطبقون من بعد ذلك الكليّ على الخارجيات، وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوه من القياس الفقهي، فلا تزال أحكامُهم وأنظارُهم كلها في الذهن.. فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمور الذهنية والأنظار الفكرية، لا يعرفون سواها، والسياسة يحتاجُ صاحبها إلى مراعاةِ ما في الخارجِ، وما يلحقها من الأحوال ويتبعها..». انتهى كلام ابن خلدون.

لقد جعل هؤلاء من أنفسهم «رقيب وعتيد» على الخلق، كما ذكرنا سابقا، مُنقّبينَ عمّا في معتقداتِ الناس وضمائرهم، ويا لفرحتهم الكبرى إن وجدوا شُبهة ما، ليجعلوا منها قضية القضايا، فيما هي من توافه الأمور وسفاسِفها التي لا ينبغي الالتفات إليها ابتداءً، كلباس المرأة وشعرها، وكالموسيقى والرسم وغيرها مما يُعد في صميم الحريّات الشخصيّة للفرد التي يجب أن تُصانَ وتُحفظ.

يسعى كثيرٌ من هؤلاء الفقهاء إلى فرض كهانةٍ دينيّة من منطلقِ حماية الدين، كما فعل كرادلة وقساوسة الكنيسة في أوروبا في عصورها المظلمة الذين ارتكبوا الجناياتِ الكبرى بحق الأمّة، جاعلين من أنفسهم أوصياء

على الناس، في سلطة موازية للدولة، وقد منحوا ذواتهم ألقابًا دينيّة فخمة، كالمرجعية والحُجة والمولى وورثة الأنبياء، وغيرها من الألقاب والنعوت التي يُدلّسون بها على محدودي الوعي والتعليم والثقافة، وتنطلي عليهم للأسف مثل هذه الكهانات؛ مؤكدين للخلق أنّ «لحوم العلماء مسمومة»، والمقصود بالعلماء هم أنفسهم، فيما لحوم بقية الخلق من مخالفيهم «طازجة» و «شهية»، ولهم حق نهشها، متى شاؤوا وكيف شاؤوا..! علمًا أن مصطلح «علماء» لا ينطبق عليهم أساسًا.

يكتبُ هذه الشاعرُ أو تلك الشاعرةُ قصيدة ما بلغةِ الشعر، بما تحتوي عليه لغة الشعر من مجازاتٍ وصورٍ وأخيلةٍ واستعاراتٍ وتناصٍ، لا يفهمها هؤلاء في الغالب، ولا يكادون يصِلونَ إلى مستواها، ومع هذا سرعان ما يذهبون للتفتيش بين مساماتِ حروفها، لعلهم يجدون شُبهة لتكفير الشاعر والتشهير به والتحريض عليه. وقد يُخطئ هذا الشاعرُ أو ذلك الكاتب ويقع في مخالفة دينيّة فعلا، وحق المخطئ رده عن خطئه بالطرق التربوية والأدبية المُثلى، وبالنُّصح والتبيين، والّلين في الكلام؛ أمّا هؤلاء الفقهاء فسرعان ما ينفخون في كِيرِ الفتنة، ويحوّلون المسائل الصّغيرة إلى قضايا رأي عام جمعي، داعين لفصل رأسه عن جسده؛ لأنه

تأوّلَ في حديثه، أو حتى وقع في خطأٍ ما.

لدينا بعضٌ من الفقهاءِ متعطشين للدم بصورةٍ عجيبة، من خلال نزعتهم التكفيرية التي ينبني عليها استحلالُ النفس والمال والعرض، يسرُّهم أن يُقطع رأسُ فلانٍ أو علانٍ من الناس في شبهةٍ ما، مع أنّ الهديَ النبوي يحث على درء الحدود بالشبهات، ولا يسرهم العفو عنه، أو إرجاعه بالحسنى عن خطئه، مع أنهم ليسوا مسؤولين أساسًا عن خطأ أيّ أحدٍ من الناس في معتقده أو فكره، فمصير الخلق إلى الخالق، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾.

لجهلهم الملحوظ.. لم يفرقوا بين مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من جهة، وبين النصيحة من جهة أخرى، مُفتئتين على الدولة في حقها الرسمي والقانوني بالتدخل فيما لا يعنيهم، والتحريض العلني على المخالفين من منابرِ المساجد أو صفحاتهم الشخصيّة على وسائل التواصل الاجتماعي، أو حتى في مجالسهم العامّة والخاصّة.

الأمر.. النهي

الأمر والنهي مدلولا ومفهوما يقتضي سلطة عليا، يتم فرضها على أي مخالف، بقوة السلطة نفسها، من منطلق شرعية هذه السلطة، سواء شرعية الأبوية المنزلية، أو شرعية الأبوية الرسمية «أبوية الدولة»، أمّا أن ينبريَ شخصٌ ما من بين الناس، مدعيًا أنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، بدون طلب رأيه، فالأمر لا يعدو أن يكون فضولا وتدخلا في شؤون الغير، وإن كان مقصدُه حسنا، وهو في هذه الحالة مشعل فتنة لا أكثر. ثم إنّ مسألة المعروف والمنكر نفسيهما مسألة نسبية، تكييفيّة، فما هو في نظر فلان منكر، هو في نظر الآخر غير منكر، وسيدخل الناس في فوضى بسبب هذا «الفضول» الذي يسمونه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

للمسلم على المسلم - وحتى على غير المسلم أيضًا - حق النصيحة فقط، والنصيحة بآدابها وشروطها التي حددها الفقهاء أنفسهم؛ أما مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهي مما يخصُّ الدولة القائمة، لا الأفراد. وهذه هي الإشكاليّة التي يقع فيها كثيرٌ ممن يُسمون أنفسهم دُعاة ووُعاظا ورجال دين. يتدخلون في شؤون الغير وخصوصيّاتهم تحت مبرر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكم فتنٍ أقاموها وحرائق أشعلوها قديما وحديثا؟!

والحقيقة أننا لو توقفنا أمام مشاهد وصور هذا التطرف والغُلو الذي يمارسونه لما وسِعنا سِفر، ونكتفي في الأسطرِ القادمةِ باستقصاء هذه الظاهرة نفسيا، في الإجابة عن سؤال: ما ذا يقول علم النفس عن المُكفّرين؟ من خلال الغوصِ في «سيكولوجيا المُكفر»، وتحليلها كظاهرة تاريخية نفسية شائعة، لا كحالة فردية عابرة، متناولين النزعات العدوانية والعُقد المكبوتة المتراكمة التي خلقت هذه الشخصيّة الوسواسيّة العدوانيّة، والتي يُمكن وصفها أيضًا بالشخصيّة الفصاميّة، باعتبار التكفير عدوانا لفظيا ومعنويا، أو قل مدخلا واسعًا، يترتب عليه عدوانٌ مادي لاحقا، يختلفُ باختلافِ موضوع التكفير نفسه.

سلطة موازية

لرجال الدين سلطة موازية لسلطة الدول القائمة، يشكلون بها ضغطا سياسيا، متلبسًا لبوسَ الدين، لفرض كهانة دينيّة، أو للحصول على مكاسب مادية، وفي الحالتين الأمر متعلقٌ بالامتيازاتِ الماديّة التي يجنونها

من هذا الحضور، وإن رفعوا يافطة «حماية بيضة الدين»!! وربما جعلوا كيانهم الديني هذا جزءًا من أجهزة الدولة الرسمية، ليمارسوا من خلاله سلطتهم الخاصة، ودائما ما تضطرُّ بعضُ السُّلطاتِ الرّسميّة لأي دولةٍ إلى ممالأة هذه الجماعة ومجاملتها في كثيرٍ من أطروحاتها، إمّا من باب المقايضة بينهما، فكل طرف يحتاجُ للآخر، أو من باب اتقاءِ شرورهم، ككيانٍ له أتباعٌ من العامّة المغرر بهم «القطيع»؛ كون العامّة من الناس ذَوُوا عاطفةٍ دينيّةٍ رقيقة، سهلة الاستجاشة والاستثارة بمجرد خطاب من رجل دين مشهور، مهما كانت جهالته، ويكفي أن يكونَ خطيبًا مُفوّها ولبقًا في الحديث فقط، ليجمع حوله قطيعًا من الأتباع يفكرون بعقله هو، لا بعقولهم هم. إنهم – وفقا لكارل يونج -: يمتلكون سلطة تتعارضُ مع سلطة الدولة نفسها.

ومن يتتبع مسيرة رجال الدين المتشددين من وقت مبكر، يجد هذا الكيان – على جهالته وضحالة بضاعته – قد انتصر على بقيةِ الكيانات الأخرى في المجتمعات القائمة، واستطاع أن يشنّعَ عليها، وأن يُلحق بها الويل والثبور؛ بل لقد استطاع في أكثر من محطة تاريخية إسقاط السلطة السّياسيّة ذاتها، واستبدالها بسلطةٍ مواليةٍ أو من ذات الكيان، «الحنابلة

والخليفة المتوكل في العصر العباسي أنموذجا».!

في الفقه انتصر الحنابلة على الحنفية، وفي الجدل انتصر الأشاعرة على المعتزلة، كما انتصر الصوفيون على الفلاسفة، مع كون المعتزلة عقل الإسلام، ومع كون الفلاسفة لسانه. أدخل المعتزلة الناسَ في دين الله أفواجًا مع توسع المد الإسلامي وتلاقح الأفكار وانتشار الجماعات، كما دافع الفلاسفة عن الإسلام باستماتة، وعملوا على «عقلنة» النصوص وتأويلها بما يقتضي مع الزمان والمكان الجديدين، في مرحلة لاحقة من مراحل الفتوحات الإسلامية خارج جزيرة العرب.

ومما يؤسف له أنه ما مِن عالم، أو فيلسوف إسلامي، أو مفكر، أو فقيه مستنير إلا وتعرض للتكفير، والتضييق عليه، ومطاردته من قبل فقهاء عصره التكفيريين، كالحسن بن الهيثم، أستاذ البصريات الأول، وكابن رشد الفقيه الفيلسوف، وغيرهم الكثير.

هل كل رجال الدين على شاكلةٍ واحدة؟

ليس كلُّ رجالِ الدين أشرار، أو على شاكلةٍ واحدة، فبين رجال الدين أناسي إلى الملائكة أقرب منهم إلى البشر، تعاملا وأخلاقا وسعة أفق، وفيهم مصلحون اجتماعيون، ورجال خير، وملائكة رحمة. فيهم المؤثرُ على نفسه، الساعي إلى إغاثة الملهوف، وفيهم الزاهد العابد والصّادق الصّدوق. فيهم المتريثُ العاقل، وفيهم التربوي الخلوق، فيهم الفقيه المستنير، والمثقف الواسع، ولكن هذا النوع قلة قليلة فيهم. أقول هذا عن خبرةٍ ملموسةٍ مع كثيرٍ منهم، كما هو الشأنُ مع النوع الأول أيضا. ولا يمكن أن يكونَ الحال إلا هكذا أساسًا.

التكفير.. حفرٌ في الأعماق

المتأملُ في قضيةِ التكفير، في غورها النفسي البعيد يستنتج أنّ التكفيرَ ليس مطلوبًا لذاته، أي ليس غاية الغايات عند رجال الدين، بقدر ما هو مدخلٌ واسع، لما بعد التكفير. وما بعد التكفير أخطر وأشنع. وهذا هو المحك الرئيس هنا.

في المجتمعاتِ الليبرالية، المستندة على قوةِ الدولة بقوانينها النافذة لا يُعتبر التكفيرُ في حد ذاته خطرًا، فليكنْ رأيًا من الآراء، أو رأيا عبثيا في الأساس، من قبيل فضول القول والتدخل في شؤون الآخرين الشخصيّة على أسوأ الأحوال؛ لأن ثمة قوانين نافذة تحفظ للناس حقهم في الإيمان وفي الكفر، وفي الحريّة بشكل عام، ما لم يتعدّ خطرَ هذه الحريّة إلى الإضرار بالآخرين، وهو مبدأ دينيٌ في الأساس حفظته قوانين السّماء. ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾. نصٌّ صريحٌ صحيح، قطعيُّ الثبوت، قطعي الدلالة، لا وزنَ ولا قيمةَ معه بعد ذلك لرأيٍ آخر من آراء رجال

الدين المتأولين الذين بدوا وكأنّ لهم إسلامًا آخر غير إسلام السماء..

أما في المجتمعات التقليدية التي يكون لرجال الدين فيها سلطة اجتماعيّة، أو سياسية، موازية لسلطة الدولة فالأمرُ مختلف؛ إذ لا يُعد التكفير مجردَ رأيٍ عابر، أو فضولا ولغوًا وهرطقة؛ بل إيذانًا بالقتل، ومدخلا للجريمة، وتبريرًا لاستحلال الأنفسِ والأموالِ والأعراض. وهنا مكمنُ الخطورة، كما أشرنا آنفا. لا لأنّ المجني عليه هنا اجترح جناية كبرى يستحق بموجبها القتل وإراقة الدم؛ بل لأن رجل الدين رغب في ذلك، أو أي متسلط سياسي أراد القضاء على خصمه عن طريق فتوى رجل الدين. وقد يقوم بتنفيذ جريمةِ القتلِ سلطة الدولة القائمة التي تقضي قوانينها التقليدية بذلك، أم شخص آخر «فاعل خير» يريق دمَ من وقع عليه التكفير؛ لأنّ شيخَه قد حكم بكفره، أو رِدّته، معتبرًا هذه الجريمة أقصرَ الطرق إلى الله، وأسرع السبل في الوصول إلى الجنة ومعانقة الحور العين وشرب الخمر، ومن هؤلاء كثير، وخاصة في أوساط الشباب الذين تعرضوا لعملية غسل أدمغة من وقت مبكر، فاعتنقوا التكفير والتطرف عقيدة ودينا.

ووفقا لفولتير: «إن الذين يجعلونك تعتقد بما هو مخالف للعقل قادرون على جعلك ترتكب الفظائع».

المنزع النفسي للتكفير

حين يُقدم شخصٌ ما على أي سلوكٍ أو تصرفٍ يتساءل الناس عادة: ما ذا يريد هذا الشخص من ذلك التصرف؟ لكن لعلم النفس سؤال مبدئي: ما الدافع النفسي الداخلي لهذا السلوك أو التصرف أولا؟! يتساءل الناس عن الظواهر السطحية، ويغوص علم النفس في الأعماق الداخلية؛ لأنّ ما على الظواهر السطحية في حقيقته انعكاسٌ لما في الأغوار والأعماق.

وبمعرفة الدافع «motive» تُعرفُ تفاصيل السلوك بعد ذلك، وتعرفُ آلياتُ العلاج له، إن كان هذا السلوك يستدعي العلاج أو الإرشاد النفسي. الدافع باعتباره منظومة الحاجات والرغبات والحوافز والبواعث والمثيرات والانفعالات كاملة.

باختصار.. العلاقة بين الكائن الحي ومحيطه، وهذا بالمعنى العام للدافعيّة؛ أما المعنى السيكولوجي الضيق فينصرف إلى القوة الميتافيزيقة الخفية التي تدفع إلى السلوك؛ أي سلوك.

وثمة ثلاث نظريات رئيسية لتفسير السلوك الإنساني:

النظرية السُّلوكية ورائدها «واطسون» الذي يفسر السلوك على أساس الفعل المنعكس.

النظرية الغرائزية، وذلك باعتبار الغرائز في الإنسان هي المحركُ الأساس لكل سلوكه. ورائد هذا المذهب وليم جيمس، ثم ماكدوجل من بعده. وقد فرّعا وأسهبا القول في الغرائز.

النظرية النفسية وإمامها الأكبر سيجموند فرويد، ثم كارل يونج، تلميذه الأقرب إليه؛ إذ يقررُ فرويد أن جميع تصرفات الإنسان كلها ترجع إلى غريزتين اثنتين: غريزة الحياة وغريزة الموت «العدوان».

من العدائية إلى العدوان

العدوان هو كل سلوكٍ يهدفُ إلى إلحاق الأذى بالآخر، بقصد الإضرار به. وقد يكون هذا العدوان ماديًا كالاعتداء الجسدي أو الاعتداء على الممتلكات، كما قد يكون لفظيا بالكلام السيء أو الجارح أو غيره. «سيكولوجيا العدوان»، خليل قطب أبو قورة، 19.

هذا العدوان في حد ذاته ناتجٌ عن حالةٍ عدائية تلبّست بالشخصية

أولا، ثم اعتملت داخلها في عملية تفاعلية تراكمية مع الزمن، لتعبر عن نفسها لاحقا بشكل تصرفات وسلوكيات نافية للآخر، مباشرة أو غير مباشرة.

التكفير في حقيقته رفضٌ للآخر ونفيٌ له، مقابل التحيز للذات.. اجتثاث مادي ومعنوي.. محو من الوجود لأي لون آخر يخالف لوننا الواحد الموحد.

التكفير معناه الوصول إلى الافتراق النهائي مع مَن نختلف معه في العقيدة أو الرأي.

التكفير إدانة للآخرين بإصدار أحكام تضع حدًا نهائيًا لحياةِ مَن نختلف معه. تستبطن هذه الإدانة فيما تستبطن حالة من الزهو والادعاء والمثالية الزائفة، تحت وهم الإنجاز وإثبات الذات.

التكفير في حقيقته نزوع سادي، يهدف إلى السيطرة على الآخر، وقد تم تطويقه وتقييده بالفتوى.

التكفير أن تجعل الآخر قيد رحمتك أيضًا بالتراجع عن فتواك، تحت أي مبرر لن تعدمه، كما لم تعدم تبريرا في حالة التكفير. «صك غفران». أي حالة من السادية المفرطة.

التكفير نزوع إلى جعل الآخر يعاني ويتألم بسبب فتواك، وقد عدم كل حيل الدفاع عن نفسه، فقد حاصرتَه أنت وفريقك وأتباعك من كل اتجاه، ليتحول بعد ذلك إلى كائن آخر مُدمّرٍ، لا علاقة له بالإنسانية، وعما قريب سينعكس هذا العنف الذي تعرض له باتجاه الأضعف منه، بطريقة تنفيسيّة، لا شُعورية، إن بقيَ على قيد الحياة أصلا، وبدور الآخر أيضًا سيمارسُ عنفه على من هو أضعف منه، في متواليةٍ من العنف متواصلة لا تنقطع؛ إذ ما من فردٍ يتعرضُ للعنف، إلا ويمارسُه على من هو أضعف منه، كعقدة نفسية مكبوتة تحتاج للتنفيس، وتعبر عن نفسها بتلقائية، حتى على الحيوان، وهكذا تتكون دوراتُ العنف، ويصبح المجتمع عدائيًا، ارتيابيا.

التكفير في حقيقته أزمة نفسية ومعرفية وأخلاقية، تصادمُ سنة الله في الكون، وحقيقة الخلق في التنوع؛ لأنّ الحياةَ بطبيعتها قائمة على الشيء ونقيضه، وهو ما يقرره القانون الثاني من قوانين الجدل الهيجلي: «وحدة وصراع الأضداد». وأساس هذا القانون المقولة السائدة أن الشيء يولد ويولد نقيضه معه، وأن كلّ ظاهرة حين تولد فإنها تحمل بين ثناياها بذور فنائها، كالحياة التي تأتي من الموت، والموت الذي يأتي من الحياة، ولولا

كلٌ منهما منفردًا ما كان الآخر، فحتى الخلايا الجذعية داخل جسم الإنسان، يموت بعضها على الدوام، لتحيا أخرى، فمثلا، ومن وجهة نظر علمية: الذرة تتكون من بروتونات ونيوترونات والكترونات، ومعروف أن شحنة البروتونات موجبة دائما، وشحنة النيوترونات متعادلة دائما، أي لا سالبة ولا وموجبة؛ أمّا الإلكترونات فشحنتها سالبة دائما، وكل هذا داخل الذرة، وكلها تعيش في وحدةٍ واحدة رغم تناقض هذه الشحنات وتنافرها. ومن وجهة نظرٍ اجتماعية فإنّ حالاتِ الاضطراب والصراع داخلَ المجتمع الواحد بين الأغنياء والفقراء تأكيدٌ على ديمومةِ الحياة الطبيعية داخلَ المجتمع، المتصارع طبقيا في حالة من الجدل المستعر والاضطراب المتوالي بين طبقتي البرجوازيين والعمال، وينطبق هذا القانون أيضًا على الصراعات السياسيّة في المجتمع الواحد، وداخل الأمة الواحدة والجماعة الواحدة.

وفي قصيدة بشار بن برد ومضاتٌ وإيماءاتٌ فلسفية إلى هذا المعنى، في قصيدته الشهيرة التي يخاطب فيها أبا مسلم الخراساني، ومطلعها:

أَبا مُسلِمٍ ما طُولُ عَيشٍ بِدائِمٍ وَلا سالِمٌ عَمّا قَليلٍ بِسالِمِ

ولعل أفضل ترجمة شعرية لهذا القانون ما أشار إليه الشاعر عبدالله

البردوني في واحدة من عيون قصائده؛ حيث يقول في قصيدة «أحزان وإصرار»:

نعـرف المـوت الـذي يعـرفنا ... مسّــنا قتــلا ودُسنــاه قتــال
وتقحّمــنا الــدّواهي صُــورًا ... أكلــت منّــا أكلنــاها نضــال
موت بعض الشّعب يحيي كلّه ... إنّ بعـضَ الـنقص روحُ الاكـتمال
ها هنا بعض النُّجوم انطفأت ... كي تزيدَ الأنجمَ الأخرى اشتعال
تفقـدُ الأشـجارُ مـن أغصـانها ... ثـمّ تـزدادُ اخضـرارًا واخضــلال

إنّ الحياةَ جميعا ـ وفقًا لهذه القانون – هي حياةُ الأضداد وتصارعاتها التي لا بدّ منها: الخير والشر، الظلمة والنور، الحر والبرد، المعرفة والجهل، الحرب والسلام، الاستبداد والعدل، الهدم والبناء، الحب والبغض، الأسود والأبيض، الذكر والأنثى، الغنى والفقر، الموت والحياة، والليل والنهار... إلخ. هذا هو قانون وحدة وصراع الأضداد، وهو أساسُ التطور والنّماء. وللقارئ أن يتخيلَ ما ذا لو كانت الحياة كلها لونًا واحدا..!

﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ ﴾.

العدوان المرتد

التكفيرُ هو القضاء على كل مخالف ومغاير ومعارض ومعترض؛ لكن هل يكفُّ مزاجُ المكفر عن التكفير عند القضاء على خصمه المغاير الكلي والمخالف له في العقيدة؟!

حتما.. لن يكف. وإنه إذا لم يجد متهمًا بالكفر سيفتش في مسامات حروف شخصٍ آخر، ولو من فريقه، يتهمه بالكفر أو الهرطقة والتجديف، ليفرغ عليه شحناته السالبة. نلمحُ هذا واضحًا في أدبياتِ رجالِ الدين الذين تضيق بهم دائرة التكفير أحيانا حين لا يجدون من يكفرونه من خارجهم، فإنهم يلتفتون إلى ذواتهم الداخلية، فيكفرون إخوانهم في العقيدة من المسلمين، وربما كفّرَ رجال الدين بعضهم بعضا في إطار المذهب الواحد أيضا، في أسوأ صورةٍ من صورِ العدوان المرتد..! وكم رأينا من فقهاء يكفرون فقهاء آخرين، ومن جماعاتٍ تكفرُ جماعات أخرى؛ على الرغم من كونهم مسلمين جميعًا، ومن مذهب واحد..!

الأمر هنا لا علاقة له بكفرٍ أو إيمان في حقيقته.. القضيّة مرتبطة بحالةٍ من الوسواس القهري وهلاوس العقل الباطن المسيطرة على ذهنية

التكفيري. ولهذا يلجأ بعضُهم إلى الاعتداء على أقرب المقربين له، لإثبات مزيدٍ من الولاء لفكرته، أو لجماعته التي ينتمي إليها، وكم سمعنا عن أناسٍ قتلوا أقاربَهم لأنهم «منافقين» أو «كفارا». وأقلهم من اعتزل هؤلاء الأقارب، أو ابتعد عنهم وفارقهم وقاطعهم واتخذ منهم موقفا حديًّا.

ليس الاعتداء على الأقارب فقط؛ بل حين يبلغ الوسواس القهري في المكفّر مبلغه، ويصبح تفكير الشخص تحت استبداد هذه الخواطر «الهلاوس» في صحوه ومنامه فإنه قد يعتدي على ذاته، فينتحر أو يفجر نفسه في حفلة دم صاخبة، ليطهر نفسه من آثامها حد اعتقاده، من أجل الفوز الكلي والأخير بالحور والجنة والخمر. وهذه سيكولوجيا الشباب الذين يلجأون إلى الانتحار في العمليات الإرهابية، من أجل تطهير ذواتهم من آثامهم التي أثقلتهم، حد توهمهم..!

قد يقول قائل هنا: ليس كلُّ مكفّر قاتلا أو منتحرًا.

وهذا صحيح؛ لكن بالمقابل يصح القول: إنّ كلّ مُكفّرٍ هو مريضٌ نفسيٌّ إلى درجة ما، تختلف هذه الدرجة من شخصٍ إلى آخر، وإنما يبلغ المرضُ منتهاه بالانتحار أو بالقتل. وأيضا فإنّ كل مُكفّر هو مشروع قاتل أو منتحر، بحكم كونه شخصية وسواسية، متراوحة بين «العصاب

النفسي» و «الذهان العقلي». فالعُصاب النفسي ما لم يتم تداركه في مراحله الأولى فإنه يتطور إلى «الذهان العقلي»/ «الجنون»، في مراحل لاحقة.

المُكفّر – من ثَمّ – شخصيّة خطرة أسريا واجتماعيا. شخصية انعزالية «فصامية»، لا يُطيق رؤية لونٍ آخر بجانبه. كلُّ قوانين الحياة والعلم والأخلاق والسياسة محكومة بتصوراته ورؤاه هو فقط دون غيره، مندمجًا نفسيًا مع معتقداته التي يؤمن بها، على خطئها، كما لو أنه قد أصبح أسيرَ قيودها. لهذا يعتقد بعضُ رجال الدين أنك حين تعارضُه فإنك تعارض الله..!

وقد رأينا فتاوى وبياناتٍ لرجال دين يذيلونها بالآية الكريمة: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

ولأنهم يعتقدون أنهم الحق والحق هم، وأنهم ورثة الأنبياء، والناطقون باسم الدين فإنهم يمارسون أبشعَ أنواع الانتهاكاتِ بدون الإحساس بالذنب، وهذا ما أكده كولن ولسون في كتابه «التاريخ الإجرامي للجنس البشري» بقوله: إن إحساسَ الشخص أنه يمثل قيمة خاصّة تفوقُ الآخرين يؤدي به إلى سلوك مسالك عنيفة، لتأكيد الذات،

إلا أن هذا العنف بطبيعته المحضة المجردة لا يمكن أن يحقق أي أهدافٍ بعيدة.

ونستمع إليه وهو يقرر حقيقة تاريخية استقرأها من خلالِ دراساته النفسيّة المتعمّقة بالقول: أن أغلب الرجال العنيفين في التاريخ، من الاسكندر الأكبر حتى ستالين انتهوا كمرضى نفسيين، فبدون القدرة على التحكم في مشاعرهم السلبية يصبحون غير قادرين على تحقيق حالةٍ من الإحساسِ والرؤيةِ المتوازنةِ والمستمرة، أو السّعادة المستديمة. إن كان علينا أن نتوصلَ إلى فهمٍ حقيقي لطبيعة الإجرام فلا بدّ أن نغوصَ إلى أعماق المشكلة، مشكلة التركيبة النفسية للتدمير الذاتي».

العنيفون في التاريخ من الاسكندر إلى ستالين قتلة مباشرون، والتكفيريون داعون إلى القتل؛ أي قتلة غير مباشرين.

مرة أخرى المُكفّر شخصٌ مضطربٌ نفسيا، وخطيرٌ على مَن حوله، وخطورتُه تكمنُ في تفكيره ابتداء، قبل تصرفاته؛ لأن الشخصيّة السويّة تبحثُ للآخرين عن الأعذار لتغفر لهم، فيما الشخصيّة المنحرفة تفتش عن أخطاء الآخرين وهفواتهم لتعاقبَهم. وقديما قالوا: «أعقلُ الناس أعذرُهم للناس». وفي الأثر: «التمس لأخيك سبعين عذرًا». وكلُّ

الفلسفات والتعاليم والنصائح والحِكَم تدعو إلى التماس الأعذار وتقبل الأخطاء، ومن القواعد الشرعية المعروفة: «أن تخطئَ في العفو خيرٌ من أن تخطئَ في العقوبة»، ولكن كل هذه الدعوات والحِكم والنصائح لا وزنَ لها ولا قيمة في ذهنية التكفيري المتشدد الذي يهرولُ هرولة إلى إدانة الآخرين كلما سمع عن هفوة أو خطأ/ خطيئة ما؛ لأنه معتلُّ الفكر أسَاسًا، وأنّى لشخصيةٍ معتلة الفكر مريضة العقل أن تهضمَ فكرًا صحيحا، أو تتقبلَ رأيًا صائبا؟!

لم يتوقف كثيرٌ من رجال الدين عند قصة الرسول - ﷺ - مع ماعز بن مالك، حين أتى إلى الرسول، معترفًا بالفاحشة، طالبا منه التطهير، فلم يستبشع منه الرسول تلك الفعلة على شناعتها، أو يوبخه، أو حتى يعاتبه؛ بل بادر من نفسه، وهو في مقام القاضي هنا، قائلا له: لعلك قبَّلتَ.. لعلك غمزتَ.. لعلك نظرت؛ باحثا له عن شبهة أو مخرج، وحين أصرّ «ماعز» على ذلك، أمر الرسول باتخاذ الحد الشرعي عليه. ولعمري لو تراجع «ماعز» أمام الرسول في لحظاته الأخير، وقد اعترف بين يديه بالفاحشة، لتركه رسول الله. فأين فقهاؤنا التكفيريون من هذا الموقف؟! وهل هم أحرص من رسول الله على الدين؟!

المُكفّر كشخصية فاشلة أنانية غير مبدعة

التصالحُ النفسي، أو ما يُعرف تربويا بالسلام الداخلي للفرد من أهم النجاحات التي يمكنُ أن يحققَها الفردُ في حياته، وهي أحدُ الأهداف العامّة للتربية، فليس بالضرورة أن يصلَ المرء إلى قمة الشهرة أو إلى ذروة الغنى المادي، فلطالما أنهى كثيرٌ من المشاهير والأغنياء حياتهم على طريقة «الساموراي»، منتحرين بعد اضطراباتٍ نفسية عنيفة، جعلتهم يرون في الموت أفضلَ طرق الحياة، صحيح أنهم نجحوا في جزئية ما؛ لكنهم فشلوا في جزئيات أخرى، ولكن من الضرورة أن يتصالح الفرد نفسيًا مع ذاته، ومع محيطه.

ومن أهم مفردات التصالح النفسي وملامحه التعايشُ بسلام مع المحيط الاجتماعي وحتى البيئي.. القبول بالآخر أيا كان.. حب الخير للناس وإن أساؤوا.. النظرة إلى الحياة العامّة بإيجابية.

هذه أبرزُ سمات الشخصيّة السوية، وعكسها الشخصيّة المنحرفة التي تتنافر نفسيا مع كل من عداها، حتى تتنافر مع ذاتها الداخلية أحيانا. ولابن القيم فصل خاص عن «النفس المطمئنة» في كتابه «الروح» فصّل

فيه طبيعة هذه الروح. كما للغزالي أيضًا وقفاتٌ مهمة في موسوعته الروحية «إحياء علوم الدين» عن ذلك.

المُكفّر شخصيّة فاشلة أنانية غير مبدعة، لم تحقق أي نجاح عملي ملموس في حياتها، فذهبت للاستعاضة عن ذلك برفع شعاراتٍ مثالية، مُغرقة في اليوتوبيا أحيانا، وبسلوك طريق التشدد والتطرف والتكفير لإثبات ذاتها. وقد سمى فرويد هذه الحالة «الإدماج»، وهو عملية نفسية لا شعورية، تُشير إلى تمثل شخصٍ موضوعا ما، تمثلا خياليا، بحيث يصبح جزءًا من الأنا، أو الأنا الأعلى لديه، واصفا هذا الشخص بالعُصابي.

في هرم ماسلو تحتل غريزة «الحاجة للتقدير» المرتبة الرابعة في هرمه المشهور، عن دراسته: «نظرية الدافع البشري». وهي نفسها الغريزة التي يراها «آدلر» غريزة «تحقيق القوة». وعادة ما تستطيع هذه الشخصيّة تحشيد كثير من القطيع حولها، خاصة إذا ما كانت الفكرة غامضة بعض الشيء؛ ومنطوية على مثالياتٍ وإبهاماتٍ، ووفقا للفيلسوف إيرك هوفر: «ليس من الضروري لكي تصبح العقيدةُ فاعلة أن يفهمَها المرء، ولكن من الضروري أن يؤمنَ بها. ونحن في الحقيقة لا نؤمنُ إيمانًا أعمى إلا

بالأشياء التي لا نفهمُها. عندما تصبح العقيدة مفهومة تفقد الكثير من قوتها».

وبقليلٍ من التأمل ندرك أنّ أكبرَ خُرافتين تاريخيتين شغلتا العالم قديمًا وحديثًا خرافتا: «شعب الله المختار» اليهودية، وخرافة «آل البيت» الشيعية. أضف إلى ذلك أساطير الهندوس وخرافاتها، وأتباع هؤلاء بعشرات الملايين..!

هذا استطرادٌ قد يبدو بعيدًا بعضَ الشّيء.

ولنعدْ إلى طبيعةِ الشخصيّة التكفيرية، باعتبارها فاشلة أنانية غير مبدعة، انتهجت أقصرَ الطرق لإثبات الذات، من أجل «التقدير الاجتماعي»، حسبما أشرنا سابقا؛ لهذا يختصرُ كثيرٌ من رجالِ الدين أمنيته في هذا الشعار: «الموت في سبيل الله أسمى أمانينا».! هذا شعارٌ في عمقه النفسي إثبات فشل في الحياة؛ لأنّ ثمة خياراتٍ أخرى كثيرة للنجاح والتميز، ولو فكر مليا في هذا الشعار المرفوع لخاطب ذاته: أنه بدلا من أن تموتَ في سبيل الله، عشْ أولا في سبيل الله..! لماذا تموت في سبيل الله، وبوسعك أن تعيش في سبيله؟!

إنّ العيشَ في سبيل الله صعبٌ للغاية، لا تدركه الشخصيّة المضطربة

نفسيا، ولا تناله بطبيعة الحال. العيشُ في سبيل الله يقتضي استحضار ثقافة الواجب قبل ثقافة الحق. يقتضي عقلا مفكرا لا عقلا مكفرا. يقتضي نفسًا متصالحة مع محيطها، لا نفسا متنافرة مع مَن حولها، ومع الوجود، لتحقيق غائية الشهود الحضاري. ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾. وللوصول إلى هذه الميزة العظمى فلا بدّ من مؤهلات استراتيجية كبرى.

العيشُ في سبيل الله يقتضي معرفة قوانين الحياة، والعيش وفق فلسفاتها، يقتضي التصالح التام مع كل من حولك، فيما الانتحارُ جهل بهذه القوانين والفلسفات، وقبل ذلك جهل بالشريعة السّمحة؛ لهذا نجد كل المنتحرين بلا إنجاز حقيقي؛ لأن الإنجازَ يبعث على السعادة المانعة للانتحار؛ بل والمتشبثة بعروقِ الحياة.

العيشُ في سبيل الله يقتضي إصلاح العقل أولا قبل التطبيع على الخلق القويم. وعملية إصلاح العقل والنفس عملية شاقة ومكلفة. يقول كانط في كتابه: الدين في مجرد حدود العقل: «التكوينُ الخلقي للإنسان لا ينبغي أن يبدأ بتحسين الأخلاق؛ بل بتحويلٍ في طريقة التفكير، وبتأسيسِ ضربٍ من الخُلق أو الطبع».

النكوص والتطرف

يُعرفُ النكوصُ بأنه الارتداد في النشاط النفسي إلى مرحلةٍ سابقة من مراحل التطور، والرجوع إلى مرحلة أولية من التكوين النفسي لدى الانسان؛ أي الرجوع إلى فئةٍ عمريّةٍ قديمة في التعامل مع الآخرين أو مواقف الحياة، والنكوصُ من منظورٍ نفسي يُعرّف بأنه حيلة دفاعيّة يلجأ إليها الفرد، حين يتعرّض لمشكلةٍ أو ضغطٍ يؤثر على مسار حياته، يفوق قدرته على التخلص منه، ممّا يُولّد في نفسه الإحباط».

والشخصيّة النكوصيّة شخصيّة مضطربة، غير قادرة على المواكبة والتحديث ومسايرة الجديد، وتلجأ لها الجماعات كوحدةٍ جماعية موحدة، كما يلجأ لها الأفراد. والسلفية المعاصرة التي غاصت في الماضي، ولم تستطع الفكاك منه هي شخصيّة نكوصيّة، فرت من مواجهة الحاضر، بعد أن عجزت عن مواجهة شروطه، ناهيك عن صناعة المستقبل الذي يتطلب أدواتٍ فعالة في البناء والمواجهة، ومن ثم انكفأت على ذاتها تندبُ حظها البائس، مستدعية من بطون كتب التاريخ مثالياتٍ وأحلامًا لم تحدث أساسًا في الماضي. بمعنى أن المثاليات التي نستبطنُها في أذهاننا عن

ماضينا وتاريخنا إبانَ أمجاده السابقة أكبر مما كانت عليه على أرض الواقع أحيانًا.

إنه نوعٌ من الحيل اللاشعورية الدفاعية التي يقع فيها الفردُ لا إراديا، رافضًا لكل جديد، وربما متذمرًا منه؛ لهذا يقاطعُ كثيرٌ من رجال الدين – أي دين – بعضَ وسائط العصر الحضارية، بحجة بدعيتها..! ومن ثم تبدأ عملية التكفير أو التفسيق لكل متعاطٍ مع المتغيرات الجديدة. ولا أدري هل يدرك جيلُ اليوم أن الفقهاء حرموا استخدام الهاتف بداية ظهوره، ثم حرموا الراديو، ثم حرموا التلفاز، ثم حرموا أجهزة الستلايت، كما حرموا ركوب الدراجة الهوائية وحرموا تعاطي اللقاحات الطبية ضد الأمراض المزمنة وغير ذلك. ولنتخيل طبيعة الحياة في حال صدقنا هؤلاء الفقهاء واتبعناهم، كيف ستكون؟!!

الأمرُ يشبه الطفل الكبير الذي أصابته بعضُ العاهاتِ العضوية أو النفسية ولم يستطع مقاومتها، فانتكص ممارسًا تصرفاتٍ طفولية بدائية، كـ «مص الأصابع» أو «البَوَال».!

إنّ مص الأصابع من قبل الطفل الكبير أو «البَوَال» هو انعكاسٌ لاضطراباتٍ نفسيةٍ داخلية، يتعامل معها الكثير من الآباء والأمهات

بأسلوب خاطئ، إلى حد أنهم يضربون أطفالهم الذين يتبولون على فراشهم ليلا، مع أنهم كلما ضربوا الطفل «البَوَال» كلما زادت عملية «البوال» الليلي..! ولو عالجوا المشكلة من جذورها لما وقع الطفلُ في هذه الحالة أساسًا.

وأحيانا تكبرُ هذه الحالة، وتصحبُ الشخصَ إلى شيخوخته؛ لكن أعراضها تختلف؛ إذ تتحولُ إلى سلوكياتٍ عدوانية في مرحلة القوة والشباب، وتتحول إلى عملية ثرثرة عن ماضي هذا الشخص أمامَ أحفاده أو رفاقه في مرحلة الشيخوخة، محتميًا بما يراه إنجازًا أو رصيدًا تاريخيًا له. والحقيقة أنّ هذا الشيخ الكبير قد عجز عن أي إنتاج جديد يجاري به المتغيرات المتتابعة، فانتكص في الماضي، يجرجرُ بطولاته، أو ما يراها بطولاتٍ، مُستلذًا بنوعٍ من «السّعادةِ الوهمية»..!

يرى المحلل النفسي والاجتماعي المعروف الدكتور مصطفى حجازي في كتابه: «التخلف الاجتماعي مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور»أنّ رجالَ الدين يمارسون حالة من التسلط الديني، ولا يبرزون من الدين سوى الجوانب التي تؤكد سلطتهم، الجوانب التي تؤكدُ على القناعةِ بما هو قائم فقط؛ أمّا جوانبُ التغيير والإبداع والعدالة والمواجهة

فيُسدلون عليها ستارًا كثيفًا من التعتيم، ومن ثم يصبح كل ما هو عصري بدعة وزندقة.. إلخ.

إنّ حالة التكفير واستباحة دم المخالف هي ذاتُها تلك الحالة الطفولية الناكصة التي يمارسُها هؤلاء، كمظهرٍ خارجي لعاهةٍ ماديةٍ أو نفسيةٍ عجزوا عن مواجهتها، أو حتى حالة الثرثرة التي يمارسُها الكبار، والمقصود بالكبار هنا كبار السن، لا كبار العقول، فليس بالضرورة أنّ كلّ من هو كبيرُ السن هو كبيرُ العقل. إنها حالة نكوصيّة، معززة بنصوص دينيّة تمّت قراءتها مبتسرة ومجتزأة، لفرضها على الآخرين، ومن يجرؤ من العامّة على رد نصوص الدين أو مواجهتها؟ أو قل على مواجهة رجل الدين نفسه؟! إنها حالة مرضية تشبه رغبة المريض في الخلود إلى نفسه فقط، وعدم رغبته في مشاركة الآخرين أنشطتهم. وما أشد التشابه بين أمراض الجسد وأمراض النفس؟!

العقد النفسية والتطرف

يقررُ المحللون النفسيون أنّ إقدام شخصيّة ما على الانتحار هي الخطوةُ العمليّة الأخيرة التي سبقتها عشرات الحالات الانتحارية نفسيا؛

أي أنه لم ينتحر ماديا لمرة واحدة، إلا بعد أن انتحر نفسيا لعشراتِ المرات، وهو يعاني وينتحر داخليا، دون أن يشعرَ به أحدٌ من المحيطين به.

كذلك الشّأنُ في طبيعةِ الشخصيّة المتطرفة التي تراكمت فيها العقد النفسية خلال حياة هذا المتطرف، وعادة ما تتراكم من وقت مبكر، في اللاشعور بعد محاولة استبعادها من دائرة الشعور.

إننا لا نستطيع محو أي ذكرى سيئة من ذاكرتنا، فقط نعمل على ضغطها في العقل الباطن «الخافية»، حتى لا ترتفع إلى العقل الواعي. ومهما كانت محاولات الضغط أو الإخفاء أو تناسيها قوية؛ لكنها تتخاطرُ لنا بين الحين والحين، ومن ثم تثيرُ فينا تصرفاتٍ غير سوية في الغالب.

الأمرُ يشبه الحادث القديم الذي شق الجلد وهشم العظم وأسال الدم وأحدث معه ألمًا كبيرا، وبعد فترة تشافينا من الحادث ونسينا الألم، ولكنّ أثرَ الجرح باقٍ أمام ناظرينا، يعيد إلينا تلك الذكرى الأليمة كلما وقع نظرُنا على أثر الجرح.

إنّ أمراضَ النفس، أو عاهاتِ الجسد الأولى تحيلُ الذات الذكية إلى كتلة متوهّجة من التميز والإبداع؛ لكنها تحيل الأغبياء إلى كتلةٍ من الإجرام، ولدينا نماذج عالمية كبيرة من الفئتين معا. المعري البردوني طه

حسين، توارثوا العمى البصري منذ الطفولة، فأحدثت هذه العاهة ردة فعل إبداعية خلاقة.

أيضًا «دارون»، المفكر والفيلسوف الشهير كان مُصابًا بتقرحاتِ القولون العصبي، وكان دائمَ الأرق في الليل، يقضي الساعاتِ الطوال متقلبا على فراشه قبل أن ينام، فأبدع بين ثانيا هذا الألم والأرق نظريته الشهيرة «الارتقاء والنشوء». كذلك العالم الموسيقي والعازف الشهير الألماني «لودفيج فان بيتهوفن» والذي دخل التاريخ من أبوابه الواسعة بسيمفونيته الإبداعية التي تميز فيها على كل مَن قبله في الموسيقى، من يدري أنه كان أصما؟!!

وعلى الجانب المغاير، وفي دراسة نفسية حديثة بعنوان: «قبل الشر» للباحث «براندون غوتيير» بحث في طفولة أبرز دكتاتوريي الماضي حول العالم، فخرج فيها بنتائج مهمة، تشير إلى أنّ كل هؤلاء الطغاة قد عانوا طفولة مبكرة بئيسة في غالبهم.

ونظرية الكبت من أهم القضايا النفسية التي ركز عليها سيجموند فرويد، وعزا أسبابها الأولى إلى الطفولة المبكرة، فالطفلُ الذي ينشأ في بيئةٍ قاسيةٍ تتراكمُ لديه العُقدُ النفسية؛ خلافَ الطفل الذي ينشأ في بيئةٍ طبيعيةٍ

غير قاسية، ينشأ إيجابيا، مُحبًا للحياة وللمجتمع، ووَاثقا من نفسه. ولفرويد إضافاتٌ أخرى في الربط بين الكبت والجنس، بالَغَ فيها كثيرًا، كما يرى المختصون، وكانت محلّ انتقاد الكثير عليه، حتى من تلاميذه.

وإلى جانبِ الكبتِ قد يتعرضُ الشخصُ للقمع، وهنا تتراكم لديه العُقد النفسية، وتكون الخطورة أشد. وبالنظر في تاريخِ الشخصيّات الإجراميّة عبر التاريخ نجدها جميعًا ذاتَ ماضٍ مليءٍ بالعُقد والاضطرابات التي تعرضوا لها منذ طفولتهم واختزلها العقل الباطن.

إنّ الشخصيّة المضطربة غير السّوية لا تكون إلا متطرفة أينما ذهبت في أقصى اليمين أو في اقصى اليسار، نلاحظُ هذه الظاهرة بوضوح في المتنقلين بين الأحزاب السياسية؛ إذ ينتقلُ الشخصُ بتطرفه ومرضه أينما ذهب، فهو متطرفٌ في اليسار، ومتطرفٌ في اليمين، وكما يقول هوفر: «لا يمكن إقناع المتطرف، ولكن يمكن تحويله إلى قضيّة أخرى».

وخلاصةُ القول هنا أنّ أيّ تكفيريٍ متطرفٍ هو في حقيقته النفسية مجموعة عُقد متراكمة منذ الطفولة، انعكست على الغير في صورة «عدوان لفظي» بالتكفير الذي هو في حقيقته الغائرة نفيٌ وإقصاءٌ نهائي، بلا مبرر منطقي وموضوعي، بمعنى أنه لو قُدر لهذا التكفيري المتشدد أن يلتحقَ

بالجيش ويترقى في القيادة فلن يكونَ إلا سفاحًا مجرمًا، كأيّ مجرم من مجرمي التاريخ، ولكن الأقدار ألقت به بين بطون الكتب، فلم يعدم حيلة – من ثَمّ – للتنفيس عن مكبوتاته بالاعتداء على الآخرين بالتكفير. وهذا ما عناه «هوفر» في المقولة السابقة.

الإسقاط والتطرف

الإسقاط «Projection» هو حيلة دفاعية من الحِيلِ النفسيّة اللاشعورية، وهو عمليّة هجومٍ يحاولُ الفردُ من خلالها حمايةَ نفسه، بإلصاقِ عيوبه ونقائصه بالآخرين، كما أنها عملية لوم للآخرين على ما فشل هو فيه. وبالتعبير الفرويدي: الإسقاط محاولة لاستبعاد العناصر النفسيّة المؤلمة عن حيز الشعور.

وعادةً ما تتبدى عملية الإسقاط بصورةٍ أوضح حين يرمي الفاشل فشله على «القضاء والقدر»، وكأنه لعبة في يد القضاء والقدر، أو كأن فشله ليس من صنع ذاته. ينطبقُ الأمر هنا على الجماعاتِ كوحدةٍ كلية، كما ينطبق على الأشخاص كوحدةٍ فردية. ولعالم الاجتماع الشهير «جوستاف لوبون» كلام مهم في الوحدة النفسية للجمهور، في كتابه «سيكولوجيا

الجماهير»، وأيضا في كتابه الآخر: «الآراء والمعتقدات».

إننا حين ندينُ الآخر، ونحاولُ إلصاق التهم به، فإننا ضمنيا نخلعُ عليه ما في أنفسنا نحن، بصورةٍ غير مباشرة. إننا نُعبّرُ عما في ذواتنا أساسًا من مشاعرَ سلبيةٍ، فنتقيأها بصورةٍ غير مباشرة على غيرنا. وهذا ما أشار إليه المسيح بقوله: «كلٌ ينفقُ مما عنده».

نفايات النفس

العمليّة تشبه عملية التخلص من النفايات تمامًا. جزءٌ من النفاياتِ التي نريدُ التخلص منها كانت منا، وربما من أجمل ما استلذذنا به؛ لكنها في لحظةٍ من اللحظاتِ تتحول إلى نفاياتٍ غيرِ مرغوبة؛ بل كريهة، نتخلص منها بتأفُّفٍ واشمئزازٍ كبيرين، ولا نكاد نطيق النظر إليها. الحال ذاته مع نفاياتِ النفس التي نتخلص منها بطريقةٍ غير مباشرة، ولكن لنرميَها على الآخرين، وما أبشع نفايات النفس..!

يذكرُ المحللُ النفسيُّ «فاميك فولكان» في كتابه «الحاجة إلى الحُلفاء والأعداء» أنّ الجماعاتِ تحتاجُ أعداءً تُسقطُ عليهم ما في نفسها من عدوانيةٍ وشُرور، وكيف أنّ الصّراعَ مع الجماعاتِ الخارجية التي نناصبُها

العداء يجسدُ في الواقع صراعَنا النفسيَّ الداخليَّ بين الخيرِ والشرِ في نفوسنا؛ حيث نُخرجُ ما في نفوسنا من شر، فنجده في الخارج بحيث يمكننا قتاله.

وذلك ما يؤكدُه أيضًا عالمُ النفس التحليلي «فيلهو هارلي» في حديثه عن الجذور النفسيّة التي يشتق منها العدو الذي نتعصّبُ ضده، فحسب التفسير النفسي: «نقوم «نحن» بتحديد شرنا بنسبته إلى «أنتم»، وهكذا نجعل «أنتم» أي الآخر هو العدو. والإسقاط كعملية سيكولوجية فردية تأخذُ طابعًا جماعيًا داخلَ جماعة «النحن» بحيث يكونُ العدوُّ نتاجًا مشتركا، يتشكلُ منا جميعًا معًا، وعلى هذا لا يكونُ ظاهرة ينجزُها شخصٌ واحدٌ بمفرده..».

وهذا ما تقرره قاعدة: أنّ الخصمَ قد يتطبع بطباعِ خصمِه دون أن يدري. وهي حقيقة سياسية واجتماعية واضحة، نلمحُها في الجماعاتِ والأحزاب السياسيّة المعارضة، فلطالما رفعت أصواتها معارضة فساد الحاكم، فإذا ما انتقلت هي إلى الحكم مارست فسادًا أقوى من فسادِ الحاكم الأول. ألم يعارض العلويون الأمويينَ والعباسيين، رافعين عقيرتهم بالعدل والمساواة والانتصاف للمظلومين؟ نعم، هذا حصل؛

لكنهم حين حكموا مارسوا جنايات بشعة، تفوق ما مارسه الأمويون والعباسيون مجتمعين. كذلك الشّأن لدى الأحزاب السياسيّة المعاصرة.

حين قال الله تعالى في كتابه الكريم: (لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ) فإنها دعوةٌ عميقة الغور، تستبطن الحفاظ على شخصية متوازية، لا تتقيأ مشاعرَها السلبية علنًا أمامَ الناسِ، فيتأذى الآخرون منها، إلا للضرورة القصوى (مَن ظُلم). استثناء شديد التأكيد. وكأنه يقول: لا تنشر طاقتك السلبية على الآخرين، فتصيبهم عدواك. ومما ينسب لأبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «البلاءُ موكل بالمنطق»؛ لهذا حضّت تعاليمُ الأديان والفلسفات على التفاؤل والكلام الطيب، بمقابل الدعوة لترك التشاؤم والتطير و «الخبيث من القول»، إلى حد اعتبار التبسُّم – وهو انعكاس للطاقة الإيجابية الداخلية – صدقة من الصدقات على صفرية تكاليفها. «وتبسُّمك في وجه أخيك صدقة».

من ناحية ثانية.. إن ثمة علاقة نسبية بين المُكفّر والذي وقع عليه التكفير، علاقة تخادم غير مباشر بين الطرفين، يستمد كل طرف وجوده من الآخر. وفي هذا يقول الفيلسوف الفرنسي آرنست رينان: «عندما يكفُّ العالم عن الإيمان بالله فإن الملحدين سيكونون أشد الناس تعاسة»؛

أي لن يجد هؤلاء الملحدون لهم منصّة يظهرون منها..! والعكس أيضًا صحيح..! ومما يُنسبُ إلى لينين: «أقصى اليمين في خدمة أقصى اليسار».

ونتذكر هنا ما يقرره الحكيم المتنبي بقوله:

إِذا ساءَ فِعلُ المَرءِ ساءَت ظُنونُهُ وَصَدّقَ ما يَعتادُهُ مِن تَوهُّمِ

وَعادى مُحِبّيهِ بِقولِ عداتِهِ وَأَصبَحَ في لَيلٍ مِنَ الشَكِّ مُظلِمِ

إنها محاكمة نوايا الآخرين إلى نوايانا نحن، لا أكثر؛ لهذا فالناسُ في نظر الكذوبِ كاذبون، والناسُ في نظر المجرم مجرمون. ولا أحدَ بريء أمامَ المذنب أبدا. وهكذا نلقي بثقلِ ما في أنفسنا على غيرنا دون أن ندري..!

خلاصة القول

التطرف حالة مَرضيّة، وأزمة نفسيّة، إلى جانب كونه نقصًا في المعرفة، وسوءًا في الأخلاق، وتخبطا في السير، وهو واحدة من مشكلات الحياة العامّة التي تعانيها الأمة منذ عصور الانحطاط الأولى، ولو تتبعنا هذه الظاهرة، لوجدناها أكثر شيوعًا في عصور التخلف منها في العصور الذهبيّة لحضارة الإسلام. وأنّ التكفيرَ والجهلَ صنوان لا يفترقان. وهما ظاهرة تاريخية ستظل ملازمة للبشرية في كل زمان ومكان، على تفاوتٍ فيها بين عصر وعصر.

ولنقرأ هذه الرواية التي تعود إلى العصر الذهبي للحضارة الإسلامّية، كما أوردها ابن تغري بردي في كتابه: «النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة»؛ لنرى عظمة تلك الفترة، يقول: كان يجتمع بالبصرة عشرة في مجلس لا يُعرف مثلهم: الخليل بن أحمد، صاحب العروض، سُنى، والسيد بن محمد الحميرى الشاعر، رافضى، وصالح بن عبد القدوس، ثنوى، وسفيان بن مجاشع، صُفرى، وبشار بن بُرد، خليع ماجن، وحماد عجرد، زنديق، وابن رأس الجالوت الشاعر، يهودى، وابن نظير

النصراني، متكلم، وعمرو ابن أخت الموبذ، مجوسى، وابن سنان الحرانى الشاعر، صابئى.

وأكثر من هذا وذاك عاش شاعرُ الخمر أبو نواس في قصر الخليفة العباسي هارون الرشيد، عيشة الخليفة نفسه، مقربا منه، على مجونه وفسوقه وتهكماته، وعاش ابن الراوندي متنقلا بين أرجاء المدن الإسلامية، على ما يحمل من أفكار، ولم ينكر عليه أحد، لا من الخلفاء ولا من غيرهم أفكاره تلك، وغيرهما الكثير.

والتكفيرُ من مخرجات التحيزات النفسية والاجتماعية، والتحوصل على الذات، سواء الذات الجمعية، أم الذات الفردية. وبتتبع كل الجماعات الأصولية المتشددة في كل الأديان نجد أنها قد نشأت من الخوف أساسًا، سواء أدركت ذلك، أم لم تدرك، لاعتقادها أن المجتمع من حولها يسعى لاجتثاثها، ابتداءً من الجماعات اليهودية منذ مرحلة ما قبل السبي البابلي، وحتى الجماعات المسيحية التي اضطهدتها روما الوثنية، وانتهاء بالجماعات الإسلامية الأصولية. ولدينا نماذج واضحة في القرن العشرين في الحركات الأصولية الإسلامية، وقبله أيضًا مع الديوبندية الهندية التي تحوصل فيها المرجع الأول للقاعدة أسامة بن لادن، وتمثل طالبان اليوم

امتدادًا فكريا لها، وأيضا بالجماعة اليهودية إبان ألمانيا النازية، حيث شهدت الجماعات اليهودية في أوروبا كلها أزمة نفسية عميقة بعد الهولوكست النازية، والتي آلت إلى تحوصلهم في وحدة نفسية واحدة مترابطة، كما حصل لهم إبان السبي البابلي، فتعاطوا مع هذه الأزمة «إيجابيا» إذا ما استعرنا مصطلح المؤرخ البريطاني المعروف آرنولد توينبي في تصنيفه للصدمات النفسية التي تتعرض لها الجماعات، وتتعاطى معها إما سلبيا، فتحتمي بالماضي، أو إيجابيا في مواجهة التحدي، منتمية للمستقبل.

مرة أخرى..

﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾

فهرس المحتويات

استهلال 5

التكفير.. استهلال تاريخي 9

التكفير في الإسلام..... 17

التكفير.. حفرٌ في الأعماق..... 31

خلاصة القول..... 60

التكفير في حقيقته رفضٌ للآخر
ونفيٌ له، مقابل التحيز للذات.
التكفير.. اجتثاث مادي ومعنوي..
التكفير.. محو من الوجود لأي لون آخر يخالف لوننا الواحد الموحد.
التكفير يعني الوصول إلى الافتراق النهائي مع مَن نختلف معه في العقيدة أو الرأي.
التكفير إدانة للآخرين بإصدار أحكام تضع حدًا نهائيًا لحياة مَن نختلف معه. تستبطن هذه الإدانة فيما تستبطن حالة من الزهو والادعاء والمثالية، تحت وهم الإنجاز وإثبات الذات.
التكفير في حقيقته نزوع سادي، يهدف إلى السيطرة على الآخر، وقد تم تطويقه وتقييده بالفتوى.
التكفير أن تجعل الآخر قيد رحمتك أيضًا بالتراجع عن فتواك، تحت أي مبرر لن تعدمه، كما لم تعدم تبريرا في حالة التكفير. "صك غفران". أي حالة من السادية المفرطة.